كلية الآداب والعلوم
College of Arts and Sciences
QATAR UNIVERSITY جامعة قطر

# بعض توجّهات البحث التطبيقي
## في اللسانيات التوليدية

**د/ محمد بلبول**
**معهد الدوحة للدراسات العليا**
mohammed.balboul@dohainstitute.edu.qa

**ملخص :**

تطمح هذه المساهمة إلى تبيان بعض مظاهر البحث التطبيقي الذي توجّهه اهتمامات اللسانيات التوليدية، وهو بحث يصدق عليه وصف اللسانيات المُطبّقة (linguistic applied). أما اللسانيات التطبيقة (applied linguistic) فتتحدّد بمُخرجاتها التقنية والصناعية شأنها شأن الفيزياء والكيمياء التطبيقيتين. بالاستناد إلى هذا التمييز، تسعى الدراسة، من خلال استعراض النقاش العلمي الذي يهيمن في الأوساط العلمية حاليا، إلى توضيح كيفيات رسم فرْضية «الأساس الفطري للمعرفة اللغوية» خريطةً لبحثَ التجريبي الذي يرصد مظاهر النحوية بدراسته الميدانية لحالات موسومة (marked)؛ من ذلك، مثلا، أبحاث بيكِرتون D. Bickerton في إطار فرضيته المسمّاة: البرنامج الأحيائي (bioprogram) التي تبلورت في سياق الدراسة الميدانية-التجريبية لمسار تَحوُّل الرّطانات (pidgin) عبر الأجيال إلى لغات مزيج (creole) ذات بنية نحوية غنية. وقد ساعدت هذه الأبحاث الميدانية في فهم بنية لغة الإشارة المستعملة من قبل الصّمّ-البُكم من خلال دراسة حالة نيكارغوا وقدمت براهين تجريبية لفائدة أطروحة الفطرية. وغرضنا، من هذا، تحقيق غايتين، أولاهما تحديد محتوى معقول لما اصطلحنا على تسميته باللسانيات المُطبّقة. أمّا الغاية الثانية، وهي التي يُحققّها القسم الثاني من هذه المقالة، فتتوخى عرض مناقشة تشومسكي لأعمال اللسانيات المطبّقة -التي تبنّت إمّا مُقاربة عُضوية للملكة اللغوية وإما مقاربة إيثولوجية (ethology)- في أفق دعوته إلى أهمية توحيد اللسانيات والعلوم المعرفية بالعلوم العصبية وعلم الأحياء.

**الكلمات المفاتيح :**

الفرضية الفطرية، العضو الذهني، البرنامج الأحيائي، الرطانة، اللغة المزيج، النزعة التطورية، التوحيد، اللسانيات التطبيقة، اللسانيات المُطبّقة.، الأسلوب الغاليلي.

# Some Aspects of The Applied Linguistics Research
## In Generative Linguistics

Dr, mohammed.balboul
Doha Institute for Graduate Studies
mohammed.balboul@dohainstitute.edu.qa

## Abstract :

The present contribution aims at delimiting the scope of a field of inquiry known under the label of «applied linguistics», confining it to the realm of technical practices. Drawing on this fact, we have presented the findings of the empirical research that adheres to hypotheses of cognitive linguistics without accepting its speculative side imbued with inferential arguments. The objective is to substantiate innateness hypothesis building on positive non-inferential arguments. Such an objective is what a linguistic purview turned toward field and empiricism attempts to realize, without dismissing the theoretical heritage of generative linguistics.

We take this linguistics to be the representative of the new applied linguistics that pays little attention to speculations relating to the internal design of language (I-language). Building on the conducted scientific works, which were either premised on D. Bickerton's bio-program hypothesis or adopted the four perspectives of the ethological approach, we tried to highlight the salient features of an applicative linguistics that falls within cognitive sciences, adopting an experimentally established approach that aims at unfolding the positive arguments in order to validate the two theses: the innate nature of language faculty and universal grammar as a mental organ.

N. Chomky criticizes some aspects of those works, notably their position in favor of New Darwinism, stipulating that language is an adaptive feature of natural selection; he equally criticizes their simplistic comparatism that studies human language and animals' codes of communication without taking into account the property of creativity unique to human language. Chomsky argues in favor of unifying cognitive sciences with neurosciences and biology. The hope of being able to inform solid propositions about the inextricable links existing between language, the mind and the brain is a distant horizon dependent on the said unification according to Chomsky.

## Keywords :

Inneism ; Cognitive linguistics; Ethology; Bioprogram; Inferential; Positive arguments; Pidgin; Creole; Ontogenesis; phylogenesis

تمهيد

يستدعي ربطُ البحث التطبيقي باللسانيات الحديثَ عن اللسانيات التطبيقية التي يجمع الدارسون على أنه توجد صعوبة في تحديد موضوعها، أو ما يُطلق عليه بعضهم «مركز جاذبيتها». ذلك أن كثيرا من المشتغلين بهذا التخصّص لا يتفقون حول الموضوعات المشمولة بعنايته، خصوصا حين لم يَعد محصورا في اللسانيات التربوية/ التعليمية. من وجهة نظرنا، يُفسّر هذا بتحوّل اللسانيات التطبيقية إلى إطار لتفاعل تخصّصات وتجارب نظرية وأمبريقية، لا يقف اهتمامها عند مشكلات استعمالات اللغة في التجربة العامة والخاصة، بل يتجاوزها نحو آفاق البحث في اللسانيات الأحيائية والعصبية. وترتّب عن هذا أنّ تداعت الأسس القديمة التى جعلت اللسانيات التطبيقية إمّا صدى لما حققته اللسانيات المنكفئة على المنهج وإجراءات الوصف في مجال الدراسة اللسانية مثل «صناعة المعجم» وإمّا ممارسة تقنية لحل معضلات عملية مثل اضطرابات النطق.

انطلاقا من هذه الملاحظة سنحاول أن نقدّم قراءة لنماذج من أبحاث اللسانيات الأحيائية وعلم الإيثولوجيا (ethology) ندرجها في اللسانيات المطبّقة لا التطبيقية؛ فهذه الأخيرة يجب، في نظرنا، أن تحدّد بمُخرجاتها التقنية والصناعية شأنه شأن الفيزياء والكيمياء التطبيقيتين. أما اللسانيات المطبّقة فنتاج توجيه النظريات اللسانية الصورية للبحث العلمي التجريبي الذي يسعى لتأكيد أو دحض نماذج افتراضية- استنباطية بأدلة مباشرة.

يستند ما سنقدمه في هذه المقالة إلى هذا المعنى الأخير، وغايتنا في ذلك، تِبيان كيف توجّه فرضيات نظرية مخصوصة، حول الخصائص الجوهرية للغة البشرية، البحثَ الميداني الذي يرصد مظاهر النحوية في النشاط التواصلي من خلال دراسة حالات موسومة (markded)؛ من ذلك، مثلا، أبحاث بيكرتون D. Bickerton التي اهتمت بتتبَع مسار تَحوُّل الرّطانات (pidgin) عبر الأجيال إلى لغات نحوية. وأبحاث جودي كيجلa[1] Judy Kegl وآخرين، حول انبثاق النحوية في لغة الإشارة المستعملة من قبل الصّمّ- البُكم في نيكاراغوا. وغرضنا، من هذا، تحقيق غايتين، أولاهما تقديم صورة وفية عن الحالة الراهنة لمشاغل اللسانيات المطبّقة كما تمارس في حقل اللسانيات المعرفية. أمّا الغاية الثانية، وهي التي يُحقّقها القسم الثاني من هذه المقالة، فتتوخى عرض تقييم تشومسكي لهذا الضّرب من الأبحاث في أفق دعوته إلى أهمية توحيد اللسانيات والعلوم المعرفية بالعلوم العصبية وعلم الأحياء، وتعد مهمة التوحيد شرطا ضروريا لترسيخ قَدم اللسانيات في ميدان العلوم الصلبة. إذ بدون هذا الانتماء سيبقى الغموض سائدا، وهو غموض ينجم عنه تهافت الرصيد العلمي حول اللغة. إذ بدون تحقُّق معرفة علمية بالخصائص الجوهرية للغات البشرية ، سيظل الفصل بين النظري والتجريبي والتطبيقي غير واضح، مقارنة بما أُنجز في الفيزياء، مثلا، التي يقوم فيها التقسيم إلى فيزياء نظرية وفيزياء تجريبية وفيزياء تطبيقية على أسس واضحة.

## 1. الأطروحة الأمبريقية لبِكيرتون ونتائجها التطبيقية

### 1. 1. سيرورة انبثاق النحوية من خلال الرطانات (pidgin)

يُعرف ديرك بِكيرتون في الأوساط العلمية بنظريته الموسومة ب «البرنامج الأحيائي» (bioprogram) وهي فرضية صاغها على أساس ملاحظات بخصوص الانتقال من الرطانات (pidgin) إلى اللغات الهجينة (creole). لقد أتاح له مُقامه في كلّ من السورينام (الغيانا الهولندية سابقا) وجزر الهاواي، رصدَ الحالة الأمبريقية التي تُبرز كيفية نشوء اللغة وبروزها كبنية

(1) انظر التفاصيل في:
Steven Pinker, Language Instinct; )New Work, HarperPerennial, 1994(, p. 36

مكتملة نحويا. ترتبط هذه الظاهرة بحقبتين من تاريخ العالَم الحديث: تجارة العبيد في الأطلسي والعبودية بوصفها وسيلة إنتاج في جنوب المحيط الهادي.

لقد تنبّه أرباب مزارع القطن والتبغ والقهوة وقصب السكر إلى خطورة التواصل اللغوي بين العبيد بسبب احتمال أن يُسهم ذلك في بروز حركة الاحتجاج وما يتولّد عنها من تحفيز على العصيان والتآمر على مصالحهم؛ فحرَصوا على أن تكون مجموعات العبيد والعمال مُكوَنة من أفراد مختلفي الألسن لتتحقق غاية تقليص التواصل فيما بينهم إلى حدود دُنيا. بعض أرباب المزارع فَضّل أن يكون العبيد أو العمال متجانسين إثنيا، لكنهم اضطروا في نهاية المطاف إلى قبول الاختلاط العرقي واللّسني في مجموعات العمل. وعلى الرغم من ذلك، فإن الأشخاص الذين لا يملكون لغة مشتركة مضطرون، بحكم إكراهات الواقع، إلى التواصل (مثل حالة العبيد في مزارع القطن). ويُعدّ هذا حافزا لهم لابتكار «رطانة» تُعرف في أدبيات اللسانيات الاجتماعية بمسمَى «pidgin».

يسرد بيكِرتون معطيات كثيرة تبين كيف تتحول الرطانة مع أفراد الجيل الثاني إلى لغة نحوية عن طريق إفراغ كثير من الألفاظ مثل (one tim, go, stay, came) من دلالتها المعجمية وتحويلها إلى عناصر مساعدة ذات دلالة وظيفية (نحوية) أو استعمالها كأدوات أو علامات إعراب أو موصولات. ينجز متكلمو الجيل الثاني هذه النقلة بكل عفوية ومن غير تدخل قصْدي مبني على معرفة نحوية مُسبّقة. من محاسن المصادفات أنْ وجد بيكِرتون العديد من العمال المهاجرين، الذين تواصلوا بلغةٍ «بدجين» في مزارع بداية القرن الماضي بهواي، ما زالوا على قيد الحياة في سبعينيات القرن الماضي، فأتاح له هذا استجوابَهم. لقد تزوج هؤلاء العمال نساءً يتكلمن لغات مختلفة عن لغاتهم، فكان أنْ تمّ التواصل برطانة فقيرة نحويا. لكنّ أطفال الجيل الثاني المنحدر من هذه الزيجات لم يتكلموا الرطانة (البيدجين) كما كان متوقعا بحسب تصور بيئي للاكتساب، بل طوّروا لغة هجينة هي المعروفة بالإنجليزية الهواوِية (نسبة إلى هواي). ويُستخلص من هذه الوقائع أنّ اللغات الهجينة (creole) هي لغات أصيلة على درجة عالية من التنظيم النحوي، فعباراتها تراعي رتبة نحوية للمكوِّنات التركيبية، ولها واسمات نحوية مضبوطة ومعيارية كما هو حال اللغات الكبرى. إنّ خصائص من هذا القبيل، لم تكن متوافرة في رطانات المهاجرين ولم تُقترض من لغات المستعمرين إلا كأصوات أما توظيفها النحوي فمُنْتَج أذهان الأطفال الصغار الذين لم يتأثروا برطانات آبائهم.

تُبدي اللغات الهجينة المنبثقة عن الرطانات المتناثرة عبر مناطق الاختلاط الإثني واللغوي، تماثلات مثيرة للدهشة لا يمكن تفسيرها إلا بافتراض أنها تعكس النحو الكلي في صورته الخالصة أكثر من غيرها من اللغات المحورية التي حظيت بتطور تاريخي مُعتبر مثل الإنجليزية والفرنسية والعربية والألمانية على سبيل المثال لا الحصر. ذلك أنّ الأطفال الذين نشأوا في بيئة تسودها الرطانة وجدوا أنفسهم، بحكم الفقر النحوي لرطانات آبائهم، مُبدعين لنحوية لا تتيحها تجربتهم الخارجية، بفضل تفعيلهم اللاشعوري للصيغ الكلية للتمثيلات النحوية لبناء عبارات مفيدة. ويفترض بيكرتون، على أساس مقارنة دقيقة بين بيانات الرطانات وبيانات لسانية من أداء أطفال الجيل الثاني أنّ اللغات الهجينة بالرغم من التباعد الجغرافي بينها، تشترك في أصل نحوي واحد يظهرُ في «الأخطاء» التي يرتكبها الأطفال حين يتعلمون اللغات التي لها تاريخ مثل الإنجليزية والفرنسية والعربية. فأخطاؤنا في الفصحى تُمثل على نحو عفوي جملا نحوية في لغات هجينة عديدة كما في نحو قولنا: « يذهبون الرجالُ». وشبيه بهذا يظهر في أخطاء الطفل الإنجليزي حين يستفهم من غير تأخير الفاعل وتقيم الرابطة» is» عليه.

Why he is crying ?

بدل

Why is he crying ?

لقد سعى بيكِرتون من خلال مُجمَل تجربته الميدانية (التطبيقية) المستنيرة بمكتسبات اللسانيات المعرفية إلى صوغ فرضية تجريبية حول الملكة اللغوية وانبثاقها على أساس ثلاثة مرتكزات منهجية[1]: أولها، ملاحظاته الخاصة التي استقاها من معاينته لسيرورة تهجين الرطانات (creolisation)، أي رصد الضبط النحوي للرطانات في سياق تحوّلها إلى لغات. ثانيها، الاستفادة من المكتسبات الأمبريقية للنحو التوليدي، وثالثها الوضع الراهن للمعارف بخصوص التطور الأحيائي والعصبي للنوع البشري. لن أعرض تفاصيل تصوّر بكيرتون للنقلة من «اللغة الطراز» (protolanguage) إلى اللغة الحديثة لبعدها النسبي عن موضوعنا. أشير فقط إلى أنّ بروز اللغات الحديثة (بالمعنى الأنثروبولوجي)-التي تتميّز عن الأنساق التواصلية غير النحوية، بخاصيتين حاسمتين، وهما البنية الحملية (predicate structure) وعلاقة التكرارية (recursivity)- ليس وليد طفرة، بحسب بكيرتون، بل هو حصيلة تطور أحيائي امتد لملايين السنين.[2]

(1) أنظر التفاصيل في مقالة:

Derek Bickerton، «The language bioprogram hypothesis»، Behavioral Brain Sciences، 7، )Cambridge University Press، 1984(.

(2) يرى بيكرتون أن الانتقال من اللغة الطراز إلى اللغة الحديثة قد مرّ بخمس مراحل: وأن ظهور هذه الأخيرة مرتبطة مرتبط بالإنسان الحديث، وهي المرحلة الرابعة، تليها المرحلة الأخيرة: مرحلة ظهور الضمائر وواسمات الزمن، والروابط التي تنتمي للصرف النحوي للغات. إن هذة الواسمات فرضت جهدا معرفيا مهمّا على المتكلم لكنها في المقابل سهلت التعرّف على العلاقات من قبل المتخاطبين، وحسب بيركنتون فإنّ القدرة على بناء العلاقات العائدية وربط الضمائر بما تحيل عليه ونحْونة واسمات الزمن والجنس أُدمِجت في الإرث الأحيائي للإنسان تدريجيا ومن حسناتها أنها مكنّت الإنسان من التفاعل على نحو يفوق القدرات التفاعلية لدى أسلافه hominids.

انظر مزيدا من التفاصيل في:

Derek Bickerton، Language and Species، )Chicago، University of Chicago Press. 1990(. trad. fr. La langue d'Adam. (Paris، Dunod، 2010).

لقد مكّنت فرضية «البرنامج الأحيائي» من توجيه الاهتمام إلى دراسة عمليات تهجين الرطانات بوصفها عمليات تنبئ عن ترابط بين انبثاق النحوية ووجود ميكانيزمات كلية أحيائية خاصة بالملكة اللغوية، فضلا عن كونها لفتت أنظار المختصين الباحثين إلى أهمية ظاهرة تحوّل الرطانات إلى لغة نحوية في مجال لغة الإشارة، فكان أن أصبح هذا الضرب من اللغات موضوعا يُسهم في فهم عمليات النحْوَنة التي يشرع الأطفال في القيام بها على نحو تلقائي متى كانت تجربتهم اللسانية تتمّ في بيئة لا تقدّم الحدّ الأدنى من المعطيات النحوية التي من شأنها أن تحفّز على اشتقاق نحو ملائم. وفيما يلي بعض التوضيحات بهذا الخصوص.

1. 1. 2. لغة الإشارة: من الرطانة إلى النحونة

انطلاقا من الدراسات التي أنجزت في إطار فرضية بيكرتون «البرنامج الأحيائي» تُعدّ لغة الإشارة نظاما نحويا، يُقدم دليلا إضافيا لفائدة انبثاق النحوية من غير تدخل المحيط، وتزكي المصداقيةَ العلمية للفرضية الأحيائية. فخلافا لمعتقدات شائعة، ليست لغة الإشارة تمثيلا إيمائيا ولا ابتكارا تَوصّل إليه المربّون، فضلا عن أنّها ليست تشفيرا (encoding) لِلغة الوسط الاجتماعي. فلغة الإشارة توجد حيثما وجد الصُّم-البُكم. وكل عشيرة للصّم البكم تُطوِّر لغتها الإشارية الخاصة والتامة التي تَستعمل الأنماط النحوية المستعملة في اللغات المنطوقة. يؤكد هذا، أنّ لغة إشارة الصّم البكم الأمريكيين مختلفة عن نظيرتها الرائجة ببريطانيا، لكنهما معا تستندان إلى أنساق التطابق والجنس التي تشبه ما هو موجود في نافاجو (إحدى لغات الهنود الحمر الذين يقيمون في الجنوب الغربي للولايات المتحدة) والبانتو (مجموعة من اللغات الإفريقية الممتدة من الكاميرون إلى جزر القَمر ومن السودان إلى جنوب إفريقيا).

انكب مجموعة من علماء اللسانيات النفسية أمثال Judy Kegl وآخرون على تتبع كيفية تكوُّن لغة الإشارة النحوية انطلاقا من لغة إشارة في وضع رطانة (بيدجين). وهيأت ظروف إصلاح تربوي أقدمت عليه نيكارغوا الأرضية لتتبع سيرورة تحوّل الرطانة الإشارية إلى لغة إشارة نحوية لدى الصّم البكم في استقلال عن تدخل المحيط. لقد كان هذا البرنامج الإصلاحي يرمي إلى إدماج الأطفال الصّم-البكم في النظام التعليمي وذلك بتلقين الأطفال (في السنة العاشرة) القراءة والكلام بمحاكاة حركة الشفاه؛ لكنّ النتائج كانت كارثية. ففي أوقات الاستراحة في باحة المدرسة، وأثناء تجمّع الأطفال في حافلات النقل المدرسي أو في لقاءاتهم الخاصة، ابتكر الأطفال، المشرفون على سنّ المراهقة، لغة إشارية خاصة بهم، مختلفة عما تعلّموه في الفصل، على أساس الحركات والإيماءات التقريبية التي يستعملونها في أوساطهم الأسرية وداخل فصول الدراسة. لقد لاحظ الدارسون أن هذا النظام المستحدث من قبل التلاميذ بموازاة ما تعلموه في الفصول، ثُبّت في ظرف وجيز ،وأصبح يُشار إليه بالرمز الاختزالي (LSN) أي لغة الإشارة للنيكارغوا. إنّ هذه اللغة الإشارية شائعة بين الصّم-البكم الشباب الذين تتراوح أعمارهم ما بين السبع عشرة سنة والخمس والعشرين سنة، وهم في الغالب أشخاص منحدرون من والِدين يستعملون اللغة المحكية بالصوت ولا يعانون من صمم. ويتبيّن للفاحص لبنية لغة الإشارة هذه -التي انبثقت خارج النظام التعليمي المُعدّ سلفا لحل معضلة هؤلاء الذين لا يَقوون على السمع ومن ثمّ على الكلام- أنّها رطانةٌ ، أي أنها مجردة من أية خصائص نحوية، ولا تتميّز بغنى أسلوبي يتمثل في استعمال التقديم والتأخير لأغراض بلاغية.

الأطفال الصّم-البكم من نيكاراغوا، الذين وُلدوا في بداية القرن الواحد والعشرين وتعرضوا لهذه اللغة وهم في حدود السنة الرابعة من عمرهم، لم يعيدوا إنتاجها كرطانة (البدجين) كما أخذوها من نظرائهم من الجيل السابق، بل استعملوا لغة إشارية مُهيكلة نحويا وأكثر ثراء أسلوبيا، مقارنة بتلك التي وضعها أسلافهم. الوضع نفسه حدث مع أطفال الأزواج الذين يتواصلون بالبيدجين الصوتي. مجمل الأمر أن أطفال الجيل الثاني، سواء تعرضوا لرطانة شفوية أم إشارية، فإنّهم يطوّرونها إلى لغة صوتية أو إشارية تمتاز بغنى نحوي وتمنح إمكانات تعبيرية جيدة.

إذا نشأ الأطفال الصّم في أحضان والدين يتحدثان لغة الإشارة، فإنّهم يتعلّمونها بالطريقة نفسها التي يتعلّم بها الأطفال العاديون لغة آبائهم. بيد أن غالبية الأطفال الصّم هم من والِدين سويّين يتكلمون لغة صوتية لا تصل مداركهم. وهم علاوة على هذا، يعيشون معزولين عن نظرائهم الذين يعانون من الإعاقة نفسها، وغالبا ما يوجّهون لتعلّم القراءة على الشفاه. لكنهم حين يبلغون سنّ الرشد فإنهم يميلون للبحث عن جمعيات تتيح لهم لقاءات عبر أنشطة ترفيهية وثقافية، فيشرعون في اكتساب لغة الإشارة التي يصبح اكتسابها صعبا مثل صعوبة اكتساب لغة أجنبية بالنسبة للشخص العادي بحكم تعرضهم المتأخر لمعطياتها. إن الشخص المصاب بإعاقة الصمم الخِلقي غالبا ما يكتسب لغة إشارية بعد أن يتجاوز مرحلة الطفولة المبكرة (وهذه هي القاعدة)، ويترتب عن هذا الاتصال المتأخر أن تكون معرفته بلغة الإشارة متواضعة، ويعدّ وهذا دليلا على أن اكتساب اللغة يجب أن يتاح في مرحلة مبكرة بصرف النظر عن كونها لغة تربط المعنى بالصوت أو تربطه بالحركات الإشارية.

### 1. 1. 3 حالة سيمون

لقد بينت دراسات أنجزت على حالة فرد أطلق عليه اسم سيمون[1]، وهو طفل يعاني من صمم عميق، وُلِد من أبوين أصّمين تعلّما لغة الإشارة على كِبرٍ ، فعانَيا من آفات الاكتساب المتأخر للغة. ما لاحظه العلماء

(1) Steven Pinker، Language Instinct 38-36 ص.

الذيـن درسوا لغتهمـا الإشارية أنهما يعجـزان عن بناء متتاليـات إشارية فيها تقديم لمركب اسمي، الشيء الذي يفسّر نـدرة استعمالهما لتراكيب التقـديم في التواصل؛ وفي حالـة استعمالهمـا له فـإنّ الأمر يختلـط عليهما ما يجعـل عِبارتَهما غير مُحكمة البنـاء. فوالِد سيمون يجد صعوبة في أنْ يقـول بالإشارة جملة من قبيل: « صديقي، كان يعتقـد أن ابني الثـاني أصَم». إنّه ينتـج سلسلة من الإشـارات تقبل أن تترجم في لغـة الصوت إلى شيء من قبيـل: « صديقـي كان يعتقـد، ابني الثـاني، كان يعتقد أنـه أصّـم» وبالرغم مـن أن سيمون لم يتعرض إلا إلى المعطيات الركيكة والفقيرة نحويا لوالديه، فإنّه استطاع أن يصـوغ لغـة إشارية تتفـوق على لغة والديـه من جهة الهيكلـة الأسلوبية والنحوية، من ذلـك مثلا أنه يستعمل علامـات تصريـف الأفعال على نحو صحيـح وينوّع رتب الكلمـات بسلاسـة ويقحـم الإشـارات الوظيفية بجانب الإشـارات المحيلة (المعجمية) علـى نحو متسق. تدحض هـذه التجربة الفكـرة الفولكلورية التي تزعـم أن الأباء يُعلّمـون أبناءهم اللغة. واقع الحال أنهم يخلُقون ،بكيفية لاشعوريـة، ظـروفَ استنبـاط توافقات البنيـة النحوية القبلية مع البيانـات اللغوية الصادرة عن المحيط، وهي بيانات ناقصة. وعلى الرغم من ذلك، فإن الطفل يصوغ نحـوا طبيعيا تاما من غير حاجـة إلى مساعدة منهجية وكثيفة صـادرة من المحيـط. وتتطابق نتائـج الباحثين مع نتائج بيكِرتـون المستخلصة من دراسة لغة المزارعين اللذيـن اشتغلوا كعبيد في مـزارع القطن منفصيلين عن أوطانهم ولغاتهـم الأمّ مستعيضين عنها برطانات كانت أساس بروز لغات نحوية لدى أبنائهم.

## 2. الفرضية الفطرية في خلفية البحث التطبيقي

لقـد سبـق أن ألمحنـا في مستهل هذه المقالـة إلى أنّ مضمـون اللسانيات التطبيقية تحـدّده في نهاية المطاف برامـج البحث النظـري، فالبرنامج النظـري للسانيات التوليدية وجّه بشكل حاسم الأبحاث التطبيقية في مجال ظهـور اللغات الهجينـة واكتسـاب لغة الإشـارة، فضلا عـن مساهمته الحاسمة في توجيـه البحث في اللسانيات الأحيائيـة التـي يعـدّ «البرنامـج الأحيائـي» صيغـة من صيغها. يصـرّح تشومسكي أن هذا الضرب من النشاط البحثـي تابـع تصوريـا ومنهجيـا للبحث النظـري حول ماهية المعرفة النحوية وبنيتهـا الداخلية؛ ويجدِّد موقفه هـذا في أحدث كتاباته بالقول إنّ تقدم البحث التطبيقي (الميـداني) المتعلّق بقضايـا اكتساب اللغـة واستعمالها ووظيفتها في المجتمع، وأصلها وتطوّرها، وتنوّع الخصائص المشتركـة للألسـن والإواليات الداخليـة التـي تشـكل اللغـة كنظام، لـن يحقق النتائـج المرجوّة مـا لم نمتلك تصـورا ولو ضمنيا عـن طبيعتها.[1] ومن هـذا المنطلق يَسُـوغ أن نقابـل البرنامج الأيحائـي (bioprogram) لبيكِرتون[2] بالبرنامـج الأدنـى لتشومسكـي من جهة أنّ الأول ذو طبيعـة علمية أمبريقية، أمّا الثاني، فذو طبيعة علميـة منطقيـة صوريـة. وهمـا معـا يشـتركان في تبني الأطروحتـين المركزيتين للسانيات المعرفية وندرجهما في كل من (أ) و(ب).

(أ) اللغة ملكة فطرية

(ب) اللغة عضو ذهني

ممّا يحسُن ذكره في هذا السياق أن فرضية «البرنامج الأحيائي» تمثل صيغة من صيغ الداروينية الجديدة التي تتبنـى الفكـرة القائلـة إنّ الملكـة اللغوية حصيلـةُ تطور أحيائي وعصبي للنوع البشري: ويُنكر تشومسكي في كثير من كتاباتـه. أن يكون تطور البنية الذهنية الفطرية للغة مرتبـط بالانتقاء الطبيعـي ويستشهـد في مؤلفه الأخير (2016) بموقـف إيـان تَطِرشـال (Ian Tattersal) الـذي يذهـب إلى أنّ دراسـة السـيرورة التطورية لـن

---

(1) Noam Chomsky. What Kind of Creatures Are We?. (New York. Clumbia University Press. 2016)

(2) Derek Bickerton. The language bioprogram hypothesis. 2. ص 173.

تسعف في اكتشاف المؤشرات الأولى التي حددت الصورة الحالية للإنسان، الإنسان اللغوي، فالوقائع تبيّن بوضوح أن تشكّل صورة الإنسان الحالية (homosapien) حدث فجائي (abrupt and sudden) يُرجّح أنه تحقّق في فترة زمنية قصيرة محصورة في خمس مائة ألف سنة. بطبيعة الحال هنالك انتقادات لهذا الموقف نجدها مبسوطة في الأدبيات المختصة، نذكر منها، مثلا، موقف ستيفن بينكر في كتابه «الغريزة اللغوية»[1] الذي يتعرض للمسألة بتفصيل في الفصل الحادي عشر وينتقد تشومكسي آخذا عليه خلطه بين التطور والانتقاء. وتسرّعِه في رفض أن يكون انبثاق اللغة لدى النوع البشري نتيجة الانتقاء. ويعبّر بيكرتون عن موقف مُوال للأطروحة التطورية في عمله فيكتب: «كُتّاب عديدون، حتى من بين هؤلاء الذين يقبلون عن طيب خاطر الطبيعة الأحيائية لملكة اللغة البشرية (Lenneberg،Chomsky 1979، 1967، Marantz 1983) ينظرون إلى الطرح بوصفه سابقا لوقته، ويصل الأمر ببعضهم إلى أنهم يعدّون البحث عن استعادة أصول اللغة شيئا غير مجدٍ (انظر: Harnad, Stiklis & Lancaster). والأكيد أنه إذا كانت هذه الملكة ذات أسس أحيائية (بيولوجية)، فيتعيّن أن تكون قد تطوّرت ضمن المسار العادي للتطور، ويجب، بالتبعية، أن تملك تاريخا حقيقيا (وربما قابلا لأن نتعقب آثاره).»[2]

مجمل النقاش العلمي الذي يستأثر باهتمام المجموعة العلمية المنخرطة في براديكم الطرح المعرفي لمقاربة اللغة، يتمحور حول العنصرين المشار إليهما أعلاه في (أ) و(ب) في علاقتهما بالتطور الأحيائي والتصميم الأمثل للملكة الذي يتعين أن يكون منسجما مع افتراض أنها فطرية. لكن ما المقصود بالضبط بالفطرية؟ يحتمل هذا السؤال جوابين: جواب سالب يُعرّف المقولة بما ليس منها فنقول: إنّ معنى أن تكون اللغة فطرية يُستفاد من أنّها غيرُ مُكتسبة. ويضعنا هذا التعريف بإزاء ثنائية: فطري/ مكتسب. لكن التدقيق في محتوى دلالة «فطري» سيقود حتما إلى التمييز بين خاصيتين للّفظ: خاصية استنتاجية (inferential) وأخرى تجريبية: بالنسبة للخاصية الاستنتاجية الصورية، فإنّ جان كلود ميلنر (1989) يُحدّدها على النحو التالي: «(أ) إذا عُدّت الخاصية س فطريةً في مجموعة ص، فإنّ كلّ أفراد المجموعة ص يملِكون الخاصية س. (الكليّة (universality)) ؛ (ب) إذا كان من المستحيل، ضمن شروط محدّدة، إنشاء سيرورة اكتساب معقولة، فإنّ الخاصية س، تُعدّ فطرية».

من البديهي أنّ الأطروحة القائلة بفطرية اللغة لا يمكن أن يكون لها مضمون مباشر إلا إذا أُسند لها معنى محددا قابلا لأن يتوافق مع معايير مُمَيِّزة (موجبة) تفصلها عن الأطروحة المقابلة، أي الأطروحة التي تدّعي أن اللغة مكتسبة من التجربة. لا يكفي أن نحيل على أنساق فلسفية، حيث تقوم الفطرية بدور مركزي، كما هو الحال بالنسبة للفلسفة الديكارتية التي استنتجت أنّ مبادئ العقل مشتركة ومستقلة عن التجربة ولا يمكن، بالتبعية، إلا أن تكون فطرية. الأَوْلى أن نتوّجه نحو العِلم الحديث لنرى كيف يحاول ربط « المعرفة الفطرية» بأساس مادي تجريبي(substrate physical)، أي كيف يُسند لها معنى موجِبا بسعيه إلى تعريفها بالبنيات العضوية الأحيائية-العصبية القائمة في الدماغ. بمعنى آخر، كيف يمكن أن نقطع مع الأدلة الاستنتاجية (غير المباشرة) بأدلة مباشرة بخصوص فطرية اللملكة اللغوية؟

نستنتج من توضيحات تشومسكي;وحواشيه المصاحبة للبرنامج الأدنى[3] أن مجاوزة الأدلة الاستنتاجية،

(1) Steven Pinker. Language Instinct. ص 358

(2) Derek Bickerton. The Language biogram hypothesis.ص 186-187.

(3) انظر، من أجل مزيد من التفاصيل، في كتابي تشومسكي:
Noam Chomsky. On Nature and Language. (Cambridge. Cambridge University Press. 2002). & What Kind of Creatures Are We?. (New York. Clumbia University Press. 2016).

لفائدة فرضية الفطرية، بتقديم أدلة مباشرة موجبة (positif)، أمرٌ مرهون بتوحيد العلوم المعرفية، ومن ضمنها اللسانيات، بعلم الأحياء وبالعلوم العصبية، ويميّز،أولا، بين إطارين رئيسَين، يتفرّع عن ثانيهما موقفان فرعيان لهما صلة بعلاقة الذهن -بوصفة بنية من الملكات المعرفية، منها ملكة اللغة- بالدماغ.

1. يُنكر الإطار الأوّل أن يكون للغة وللملكات الذهنية العليا أساس أحيائي.

هيمن هذا الإطار في الأوساط الفكرية منذ عشرينيات القرن الماضي، مستندا إلى فكرتين: واحدة أنتربولوجية والأخرى سيكولوجية:

- إذا كان الحيوان محكوما بطبيعته الأحيائية (البيولوجية)، فإن السلوك البشري محدّد بالثقافة،التي لا تعدو أن تكون نسقا من الرموز والقيم المستقلة عنه. وبما أن الثقافات لا تخضع للقيود الأحيائية، فإنها قابلة لأن تتنوع على نحو عشوائي وغير محدود.
- يولد الرُضّع مجردين( من المعارف القبلية) باستثناء بعض ردّات الفعل واستعدادات للتعلّم. ويعدّ التعلّم سيرورة متعدّدة الوظائف وغير متخصصة، ويتعلَم الأطفال ثقافتهم بواسطة التَلقين المدعم بالتحفيز بواسطة المكافأة والزجر، وعن طريق نماذج للأدوار.

2. يذهب الإطار الثاني إلى أنّ لعلم الأحياء دورا في فهم المظاهر الذهنية للعالم عبر تجلياتها المتمثلة في اللغة والنشاط الفكري.

وينضوي تحته موقفان كما سبق وأن أشرنا:

- التوحيد (unification)، بمعنى: خلق إطار علمي لتوحيد العلوم المعرفية/اللسانية والعلوم العصبية والأحيائية، ليس في المتناوَل الآن بحكم الحالة العلمية الراهنة.
- لحظة التوحيد المنشودة التي عرفتها الفيزياء والكيمياء و علم الأحياء، مازالت بعيدة بحكم أنّنا لا نملك ما يكفي من المعلومات عن بيولوجية الأعضاء المعرفية ولا نقدِر، في الظرف الراهن، على الربط بين أقسام علم الأحياء.

يميل تشومسكي إلى الأخذ بالموقف الثاني استنادا إلى فحصه النقدي لأطروحات ثلاث[1]:

1. الأطروحة الأولى تقول إن الموضوعات الذهنية وكل منتجات الذهن بصفة عامة، خصائص منبثقة من الدماغ، بمعنى أنّ الظواهر الذهنية ظواهر طبيعية كُلّيا وناجمة عن النشاط العصبي-الفيزيولوجي للدماغ.
2. الأطروحة الثانية تمثلها الإيثولوجيا (ويسميها الأطروحة المنهجية) من خلال عمل مارك هاوزر (Mark Hauser) حول تطور التواصل. فهذا الأخير يتبنى الأبعاد المنهجية الأربعة لتينبرجن[2] (Tinbergen) لدراسة التواصل في عالم الحيوان، بما في ذلك التواصل البشري بواسطة اللغة. وهي:

- البحث عن الآليات السيكولوجية والفيزيولوجية التي تثبِّت أداة اللغة: البعد الآلي. (mechanistic perspective)
- فرز العوامل الوراثية (الجينية) والبيئية التي يمكن تناولها في المستويات السيكولوجية والفيزيولوجية: بُعد النموّ البيولوجي للكائن (perspective ontogenic).
- اكتشاف التكيّفات الناجمة عن هذه السمة وتأثيراتها في البقاء على قيد الحياة والتوالد: البُعد الوظيفي. (functional perspective)

---

(1) ينظر بصفة خاص الفصل الثاني من كتابه On Nature and Language ص. 61-91

(2) نيقولاس تينبرجن عالم أحياء وخبير في الطَيّريات (ornothologue) إيرلاندي، حاصل على جائزة نوبل الطب والفيزيولوجيا سنة 1973. له مؤلفات عديدة نذكر منها كتابه دراسة الغريزة (1951) والسلوك الاجتماعي لدى الحيوان (1953) وكتاب الأطفال المتوحّدون: أمل جديد للشفاء(1983) تأليف مشترك مع زوجته. توفي سنة 1988.

الإحالة عن بُعد، أي توصيل المعلومة بصدد شيء غير موجود في المجال الحسي للمتلقي. وينبّه تشومسكي في البداية إلى أنّ عنوان مؤلّف هوزر مُضلّل، لأن الكتاب، عكس منطوق عنوانه لا يدرس تطوّر التواصل من الناحية البيولوجية، بل يركز على دراسة التواصل من منظور مقارن عند العديد من الفصائل والأنواع.

بالرغم من قيمة الوقائع المعروضة والأوصاف التفصيلية المهمة والمثيرة للفضول، فإنّ الكتاب لا يرقي –في نظر تشومسكي– إلى أن يكون كتابة لتاريخ تطوّري، إنه صياغة جيّدة للإشكالات المطروحة على بساط البحث، والمتعلقة أساسا بصلة المعرفة/اللغة بالجسد من منظور فيزيولوجي تطوّري أحيائي وظيفي لا غير. يعبّر تشومسكي عن هذا الحكم بقوله: «لقد تعلّمنا أشياء كثيرة عن الأنواع الخاصة (الحشرات، الطيور، القِردة، إلخ) على مستوى وصفي خالص؛ لكن لا شيء من كلّ هذا يتيح استخلاص تعميمات؛ بسبب أنّ مقاربة المسألة الشائكة المتعلقة بربط تشكل اللغة/التواصل بالسيرورة الانتقائية التكيُّفية للنوع ظلت، لدى هوزر، إمّا مَبنية على سوء تقدير للاختلافات بين اللغة البشرية واللغة لدى الحيوان وإمّا محكومة بإضفاء صِدقية غير مؤكّدة على الأفكار الشائعة حول الموضوع. من ذلك مثلا أنّ هوزر، شأنه شأن باحثين كُثر، لا يقدّر الاختلاف البنيوي والوظيفي الجوهري حقّ قدره. بين كيفية استعمال البشر للكلمات لغرض الإحالة وبين الأمثلة النادرة للإشارات الإحالية لدى الأنواع الأخرى، ومن ضمنها بعض القردة، وهو اختلاف يتجاوز مسألة الإحالة عن بعد أو الإحالة المستقلة عن المقام التخاطبي. وفي مقابل هذا يبالغ الباحث في تقييم شيوع ما تم تبيانه في هذا المجال»(1). فاستنادا إلى بعض التأمّلات الحذرة لداروين يستخلص هوزر أنّنا نعرف شيئين، في غاية الأهمية، عن تطور اللغة البشرية: أوّلهما أنّنا نستطيع فهم بنية ووظيفة اللغة البشرية على أساس مبدأ الانتقاء الطبيعي. ثانيهما أنّ الرابط الأبرز بين صيغ التواصل البشري والتواصل غير البشري يتمثّل في القدرة على التعبير عن الحالات الانفعالية. ويستخلص أنّ التفسير الدارويني هو التفسير الوحيد الممكن لأنّ الانتقاء الطبيعي يُعدّ الإوالية الوحيدة القادرة على تفسير الخاصيات البنيوية المعقدة لسِمَة مثل اللغة. ينتفض تشومسكي ضد هذا الكلام بالقول إن التأملات الحذرة والتصريحات الواثقة لا تثبت شيئا، باستثناء أننا أمام مشروع قد يكون واعدا، وأنّ ما نجحت دراسة هوزر في إثباته لا يخرج عن المعتقد السائد الذي يزعُم أنّ الانتقاء الطبيعي عامل مركزي في التطوّر. يخلص تشومسكي، في نهاية المطاف إلى أنّ المقاربة المنهجية أو الإيثولوجية تبقى مشروعة ومعقولة لكن طريقة تطبيقها تطرح أكثر من سؤال. فتشومسكي يرى أن الاستمرار على النّهج الإيثولوجي المعروف بنقده للنزعة السلوكية في علم النفس،لا يتيح مجاوزة نقطة انطلاق هذا الاتجاه التي تعود إلى خمسين سنة خلت. ما يمكن القيام به، في نظر تشومسكي، «يتمثّل في دراسة المكوّن المُحدّد وِراثيا للدماغ المسؤول عن بنية واستعمال اللغة وعن الحالات التي يبلغها هذا المكوّن( اللغات الخاصة)، كما أنّنا يمكن أن ندرس السيرورات المفضية إلى تغييرات في الحالة المعرفية (اكتساب اللغة). وبالإمكان أيضا أن نرومَ اكتشاف الإواليات (الميكانيزمات) والمبادئ السيكولوجية والفيزيولوجية مع السعي إلى توحيدهما. تُشكل هذه الأبحاث –التي تثير قضايا اعتيادية في العلوم– البُعْدين الأولين للمقاربة الإيثولوجية، ونعني بهما: دراسة الإواليات (mechanistic perspective) ودراسة النموّ البيولوجي للكائن (perspective ontogenic). وحين نلتفت إلى البعد الوظيفي، أي البعد الثالث، فإنّ دراسة استعمال اللغة من طرف شخص بلغ حالة معرفية

(1) Noam Chomsky. On Nature and Language 1. ص 82

الإحالة عن بُعد، أي توصيل المعلومة بصدد شيء غير موجود في المجال الحسي للمتلقي. وينبّه تشومسكي في البداية إلى أنّ عنوان مؤلّف هوزر مُضلّل، لأن الكتاب، عكس منطوق عنوانه لا يدرس تطوّر التواصل من الناحية البيولوجية، بل يركز على دراسة التواصل من منظور مقارن عند العديد من الفصائل والأنواع.

بالرغم من قيمة الوقائع المعروضة والأوصاف التفصيلية المهمة والمثيرة للفضول، فإنّ الكتاب لا يرقى –في نظر تشومسكي– إلى أن يكون كتابة لتاريخ تطوّري، إنه صياغة جيّدة للإشكالات المطروحة على بساط البحث، والمتعلقة أساسا بصلة المعرفة/اللغة بالجسد من منظور فيزيولوجي تطوّري أحيائي وظيفي لا غير. يعبّر تشومسكي عن هذا الحكم بقوله: «لقد تعلّمنا أشياء كثيرة عن الأنواع الخاصة (الحشرات، الطيور، القِردة، إلخ) على مستوى وصفي خالص؛ لكن لا شيء من كلّ هذا يتيح استخلاص تعميمات؛ بسبب أنّ مقاربة المسألة الشائكة المتعلقة بربط تشكل اللغة/التواصل بالسيرورة الانتقائية التكيُّفية للنوع ظلت، لدى هوزر، إمّا مَبنية على سوء تقدير للاختلافات بين اللغة البشرية واللغة لدى الحيوان وإمّا محكومة بإضفاء صِدقية غير مؤكّدة على الأفكار الشائعة حول الموضوع. من ذلك مثلا أنّ هوزر، شأنه شأن باحثين كُثر، لا يقدّر الاختلاف البنيوي والوظيفي الجوهري حقّ قدره. بين كيفية استعمال البشر للكلمات لغرض الإحالة وبين الأمثلة النادرة للإشارات الإحالية لدى الأنواع الأخرى، ومن ضمنها بعض القردة، وهو اختلاف يتجاوز مسألة الإحالة عن بعد أو الإحالة المستقلة عن المقام التخاطبي. وفي مقابل هذا يبالغ الباحث في تقييم شيوع ما تم تبِيانه في هذا المجال»(1). فاستنادا إلى بعض التأمّلات الحذرة لداروين يستخلص هوزر أنّنا نعرف شيئين، في غاية الأهمية، عن تطور اللغة البشرية: أوّلهما أنّنا نستطيع فهم بنية ووظيفة اللغة البشرية على أساس مبدأ الانتقاء الطبيعي. ثانيهما أنّ الرابط الأبرز بين صيغ التواصل البشري والتواصل غير البشري يتمثّل في القدرة على التعبير عن الحالات الانفعالية. ويستخلص أنّ التفسير الدارويني هو التفسير الوحيد الممكن لأنّ الانتقاء الطبيعي يُعدّ الإوالية الوحيدة القادرة على تفسير الخاصيات البنيوية المعقدة لسِمَة مثل اللغة. ينتفض تشومسكي ضد هذا الكلام بالقول إن التأملات الحذرة والتصريحات الواثقة لا تثبت شيئا، باستثناء أننا أمام مشروع قد يكون واعدا، وأنّ ما نجحت دراسة هوزر في إثباته لا يخرج عن المعتقد السائد الذي يزعُم أنّ الانتقاء الطبيعي عامل مركزي في التطوّر. يخلص تشومسكي، في نهاية المطاف إلى أنّ المقاربة المنهجية أو الإيثولوجية تبقى مشروعة ومعقولة لكن طريقة تطبيقها تطرح أكثر من سؤال. فتشومسكي يرى أن الاستمرار على النّهج الإيثولوجي المعروف بنقده للنزعة السلوكية في علم النفس، لا يتيح مجاوزة نقطة انطلاق هذا الاتجاه التي تعود إلى خمسين سنة خلت. ما يمكن القيام به، في نظر تشومسكي، «يتمثّل في دراسة المكوّن المُحدّد وِراثيا للدماغ المسؤول عن بنية واستعمال اللغة وعن الحالات التي يبلغها هذا المكوّن (اللغات الخاصة)، كما أنّنا يمكن أن ندرس السيرورات المفضية إلى تغييرات في الحالة المعرفية (اكتساب اللغة). وبالإمكان أيضا أن نرومَ اكتشاف الإواليات (الميكانيزمات) والمبادئ السيكولوجية والفيزيولوجية مع السعي إلى توحيدهما. تُشكل هذه الأبحاث –التي تثير قضايا اعتيادية في العلوم– البُعدين الأولين للمقاربة الإيثولوجية، ونعني بهما: دراسة الإواليات (mechanistic perspective) ودراسة النموّ البيولوجي للكائن (perspective ontogenic). وحين نلتفت إلى البعد الوظيفي، أي البعد الثالث، فإنّ دراسة استعمال اللغة من طرف شخص بلغ حالة معرفية

(1) Noam Chomsky. On Nature and Language 1. ص 82

معيّنة يصبح ممكنا؛ بالرغم من أنّ القيد على التأثير في البقاء والتناسل ضعيف جدّا ممّا يحُدّ من آمال بلوغ فهم جيّد للغة. أما البُعد الرابع المتعلّق بتطوّر النوع، فإنه يُعدّ في أحسن الحالات أُفقا بعيدا ويبدو أنّ الدراسة المقارنة للتواصل –مثل تلك التي قام بها مارك هوزر– لا تعمل على تطويره.»[1] (م.ن، ص. 83-84).

لننظر الآن في مضمون الأطروحة الجوهرية/ القالبية وكيف تنظر لعلاقة اللغة بالدماغ، وهي أطروحة تُمثّل الخلفية الميتانظرية لنظرية تشومسكي اللغوية في صيغتها الموسومة بالنظرية الأدنوية القوّية (Strong Minimalist Theory). تقوم هذه الأطروحة على نتائج أبحاث تفيد بأنّ اكتساب اللغة يَتمّ غريزيا على أساس عضو متخصّص في الدماغ يسمّى « عضو اللغة». ويترتب عن هذا أن الملكات الخاصة للذهن (الملكات المعرفية) موزّعة على أعضاء متخصّصة في معالجة المعلومات الموافقة لها. يعرف هذا الموقف بالموقف القالبي الذي يُعتبر الموقفَ المعياري في علم الأحياء، ذلك أنّ «تخيُّل عضو حاسٍّي (نسبة إلى الحاسة) يؤدي وظيفة عامة، ويستطيع حلّ مشكلات الإحساس في حال فشل أعضاء الحواس المتخصّصة مثل العين أو الأذن أو أعضاء أخرى متخصّصة، شيء غير متصَوّر في علم الأحياء: فالتخصّص التكيُّفي (adaptative specialization) عامّ وبديهي في كل مستوى من مستويات التحليل وبالنسبة لكل أنواع الوظائف إلى درجة ألا أحد يفكر في التذكير به (م.ن، ص. 86). ينسحب هذا على اللغة، إذ من الصعب إنكار أنّ جزءا من الإرث الأحيائي للبشر عبارةٌ عن «عضو للّغة» متخصّص، نُطلق عليه الملكةَ اللغوية. إنّ من مهامّ النظرية اللسانية التوليدية أن تُحدّد مضمونَه الصوريّ والجوهريّ، أي هندسته الداخلية وطبيعة العمليات التي ينجزها والعناصر الأولى (primitive) موضوع المعالجة.

يبرز الموقف الجوهري لتشومسكي من خلال مناداته بالتركيز على دراسة الخصائص الجوهرية للغة –المتولدة عن مبدأ النجاعة الحاسوبية للنظام النحوي– ضمن الأبعاد المنهجية الثلاثة الأولى للأطروحة المنهجية (الإيثولوجية) بوصفها تحدّد إطارا علميا يكفل ربط الدراسة اللسانية النظرية بالعلوم الأحيائية والعصبية وعلم السلوك الحيواني؛ ويرى ألا حاجة تدعو إلى حصر دراسة الاستعمال اللغوي في تبعاته التكيّفية: البقاء والتناسل فضلا عن تشكيكه في سلامة نتائج الدراسات التي اعتنت بالتكوّن التطوري للعضو الذهني المسؤول عن اللغة. ويستند في دعواه إلى أنّ فرضيات البرنامج الأدنى تتوافق مع ما لدينا من معطيات (ولو ناقصة) حول انبثاق اللغة الذي يبدو أنه واقعة فُجائية وحديثة نسبيا بالمقياس الزمني للتطور.

## 3. خاتمة :

سعينا في هذه المقالة إلى اعتبار الأبحاث ذات المنحى التجريبي/الاختباري، والمتبنية لأطروحة فطرية المعرفة اللغوية، أبحاثا تطبيقية، وذلك على أساس أنها كانت معنية باكتشاف الأدلة المباشرة والموجِبة، المستخلصة من تطبيقات تجريبية، تُبرهن على صلاحية نظرية صورية افتراضية–استنباطية مثل نظرية تشومسكي حول الخصائص الجوهرية للغة الطبيعية. ومن المعلوم أنّ تبني تشومسكي للأسلوب العلمي الغاليلي الذي يتصوّر أنّ المنهج العلمي السليم هو ذلك المنهج الذي يعطي الأسبقية للعقل على التجربة، ويعلي من شأن النماذج المثالية (الرياضية) واضعا الواقع الأمبريقي خارج سلطة البرهان بحكم أنّ هذا الواقع المباشر غامض ومُضلّل، جعله يشكّك في قيمة نتائج المقاربات الإيثولوجية والأحيائية التطورية التي تبقى في نظره ذات قيمة منهجية لا ترقى إلى مجاوزة التعميمات الوصفية

(1) المرجع السابق، ص. 83-84

نحو المبادئ التفسيرية العميقة. أما اللسانيات التطبيقية بالمعنى الكلاسيكي فلن تكون سوى رجع صدى لحقبة ما قبل ميلاد النظرية التوليدية التحويلية التي استعملت اللغة الرياضية لصوغ الأسئلة حول اللغة في علاقتها بالذهن والإرث الأحيائي المشترك بين البشر.

لكن هذا النقاش الذي أملته طبيعة موضوع المقالة لا يقدم حلا لمعضلة مكانة اللسانيات التطبيقية في خريطة البحث اللساني ربما بسبب الالتباس الملازم لمصطلح لسانيات الذي يحيل على أشياء كثيرة وغير متجانسة، بخلاف العلوم الصلبة مثل الفيزياء أو الكيمياء التي تمكنت، بفضل الإجماع المؤسسي حول مضمونها أن تضع حدودا فاصلة بين ما هو نظري وماهو تجريبي وماهو تطبيقي. على هذا الأساس لا يحتاج الحديث عن فيزياء تجريبية وفيزياء تطبيقية شرحا ولا جدالا. ويبدو أنّ دعوة تشومسكي إلى توحيد العلوم المعرفية والعلوم العصبية والأحيائية قد يعيد الأمور إلى نصابها بربط اللسانيات التطبيقية بالتقنية والصناعة بدل ربطها بمناهج تعليم اللغات وصناعة المعاجم، وهذه أمنية بدأنا نرى علامات تحققها في الواقع بفضل الإنجازات الصناعية التي تقدم حلولا عملية لمشكلات التواصل اللغوي بين ذوي الحتياجات الخاصة.

نذكر من باب التأييد لهذا، ابتكار قفاز إلكتروني يحوّل لغة الإشارة التي يستخدمها الصمّ-البكم إلى نصوص مكتوبة تظهر على شاشات الهواتف المحمولة والكمبيوتر وهو ابتكار لا يحتاج (على نحو مباشر) إلى نظرية لسانية حول بنية اللغة الداخلية بقدر ما يحتاج إلى بنية رياضية خوارزمية تمكن من تحويل العلامة الإشارية إلى علامة مكتوبة من دون تبني افتراضات دقيقة حول طبيعة النظام النحوي الذي يولّد البنيات النحوية ويسقطها في وجاهات (interfaces) تتيح قراءاتها، أي تأويلها، وهذه لعمري من الأمثلة التي تبين أن وشائج القرابة بين اللسانيات الداخلية (بالمعنى التوليدي) وبين اللسانيات التطبيقية ليست بسيطة، بمعنى أنها ليست مجرد علاقة تحويل آلي تُمكّن من نقل النظرية إلى مجال التقنية/الصناعة. فالمرجح أن العلوم التطبيقة لها منطقها الخاص وقراءاتها الخاصة للإرث النظري، ومقيدة بقيود مختلفة عن تلك التي يخضع لها ابتكار الأفكار والنظريات العلمية.

## المراجع


Bickerton, Derek & commentators, «The language bioprogram hypothesis», Behavioral Brain Sciences, 7, p. 173221-, Cambridge University Press, 1984.

Bickerton, Derek, Language and Species, Chicago, University of Chicago Press. 1990. trad. fr. La langue d'Adam. Paris, Dunod, 2010.

Chomsky, Noam, On Nature and Language, Edited by Adriana Belletti and Luigi Rizzi, Cambridge University Press, 2002. trad. fr. Marseille. Agone. Coll. Banc d'essais. 2011.

Chomsky, Noam, What Kind of Creatures Are We. New York, Clumbia University Press, 2016.

Koyré, Alexendre, Etudes d'histoire de la pensée scientifique, Paris, Gallimard, 1966.

Pinker, Steven, Language Instinct; New Work, HarperPerennial, 1994.

Milner, Jean –Claude, Introduction à une science du langage, Paris, Seuil, 1989.

Schmitz, John Robert,»Some Polemical Issues in Applied Linguistics», Belo Horizont,. RBLA, v.10. n 1. P 212010 .42-.